(٢)

المذوابجزة

في تاريخ الاسلام

«(لماذا تتابعت النكبات على المسلمين ؟ . . . إن التاريخ أصدق ناطق فاستنبئوه . . . لقد كان العرب قبل الاسلام هملاين الناس ، لايقام لهم عند الشعوب ميزان ، جاء الاسلام فجعلهم الفاتحين السادة القادة الذين رفعوا لواء الاسلام في المشارق والمغارب ، مما أدهش وحير وأسر ، لقلة الزاد عند المسلمين والعتاد والعدد ، مع كثرة الأعداء وتشعب الأنحاء ، ولقصر الوقت وسرعة التقدم ، وما نجحوا إلا لأنهم أصبحوا بنعمة الايمان رجال دعوة وأصحاب مبدأ ، يعرضون عن الدنيا إلى الاخرة ، ويرضون الله اولا واخيرا ، ويعملون لهداية العالمين بنفوس مؤمنة ، وارواح تهفو إلى لقاء الله كما يهفو الظمآن إلى مثواه ، فليسوا طلاب شهوة او مجد ، ولكنهم طلاب شهادة .

وما ضعف المسلمون وذلوا إلا يوم فقدوا الايمان والزهد والجهاد وحب الشهادة ، ولن يعزوا طريق العزة إلا باستعادة هذه الصفات » .

الكرباصي

المد والجزر
فى تاريخ الاسلام

كان العرب قبل الإسلام أمة كادت تكون خاملة منعزلة عن العالم ، قد فصلتها عن العالم المتمدن المعمور البحار من ثلاث جوانب ، وصحراء من جانب وكانت من الانحطاط والانقسام والضعة والخمول بمكان لاتطمح فيه حينا من الدهر إلى غزو البلاد ، ولا تحلم بالانتصار على الدول المجاورة لهـا فى المنام ولاتحدث به نفسها يوماً من الأيام .

هذا ، ودولتا فارس والروم يومئذ سيدتا العالم ، وزعيمتا الشرق والغرب ، وقد أحاطت تمتلكاتها بشبه جزيرة العرب إحاطة الثوار بالمعصم ، وإنما زهد الفرس والرومان فى فتح هذه الجزيرة وعورتها ، وقلة خيراتها ومواردها ، وما يكلفهم ذلك من رجال وأموال ، هم فى غنى عن إنفاقها فى هذه الصحراء المجدبة ، وفى هذه الأمة الفقيرة ، وإنما اكتفوا برقابتهم السياسية عليها ، وبإمارتهم التى أنشأوها على ثغور هذه الجزيرة الواسعة ولهواتها .

هكذا كانت هذه الأمة التى كانت لتمثل دورا مدهشا فى تاريخ العالم عن قريب ، كانت أمة بدوية موهوبة ـ ولكن مواهب ضائعة ـ لايرفع الناس بأفرادها فى العراق والشام ومصر رأسا ، إذا مروا بهم تجارا أو متازين ولا يحسبون لهم حسابا . ولا يهمهم شانهم إلا مايهم أهل المدن شأن الاعراب المستغربين فى اللباس والصورة واللسان ، ولا يذكرونهم ـ إذا ذكروهم ـ إلا بذلاقة لسانهم وفصاحة منطقهم وشجاعتهم ، وجودة خيلهم ووفائها ، إلى غير ذلك مما قد تعرفه الأمم المتمدنة عن الأمم البدويه .

وإذا أردت أن تعرف منزلة العرب عند اهل العالم قبل الاسلام والنظرة التى كان ينظر إليهم بها جيرانهم فى الشرق والشمال فاستعرض الآراء التى أبداها رجال ذلك العصر من أهل البصر والمعرفة ، ووافق عليها العرب أنفسهم وزادوا عليها .

فما حفظه لنا التاريخ من هذه الآراء : ماقال امبراطور الدولة الفارسية لسراء المسلمين .

جاء فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير الدمشقى ، بعد ماساق حديث رسل المسلمين فى مجلس يزدجرد .

قال : « فتكلم يزدجرد فقال : إنى لا أعلم فى الارض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قدكنا توكل بكم قرى الضواحى ليكفونا كم ، لاتغزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم . فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا . وإن كان الجهد دها كم ، فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسونا كم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم » .

فقال المغيرة بن شعبة :

« أيها الملك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما . فأما ماذكرت من سوء الحال . فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا : فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، ونرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فانما هى ظهر الارض ، ولا نلبس إلا ماغزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، وان يبغى بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حيه ، كراهية أن تأكل من طعامه وكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك فبعث الله إلينا رجلا الخ (١) » .

وجاء فى هذا الكتاب أيضا :

« قد بعث أمير الفرس يطلب رجلا من المسلمين ليكلمه . فذهب اليه المغيرة ابن شعبة ـ فذكر من عظم مارأى عليه من لبسه ومجلسه وفيماخاطبه به من الكلام فى احتقار العرب واستهانته بهم وانهم كانوا أطول الناس جوعا وأقلهم داراً وقدراً ـ وقال : وما يمنع هؤلاء الاساورة (٢) حولى أن ينتظموكم بالنشاب إلا مجا من جيفكم ، فإن تذهبوا نخل عنكم وإن تأبوا نذركم مصارعكم . قال . فتشهدت وحمدت الله ، وقلت : لقدكنا أسوأ حالا مما ذكرت حتى بعث الله رسوله الخ(٣)

---

(١) البدايه والنهاية ج ٧ ص ٤٢

(٢) الاسوار والأسوار عند الفرس : القائد ، أساور واساورة

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٩

وفى هذا الكتاب أيضا :

ذكر الوليد بن مسلم : ان ماهان طلب خالداً ليبرز اليه فيما بين الصفين فيجتمعا فى مصلحة ، فقال ماهان : إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع ، فهلموا إلى أن أعطى كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاما ، وترجعون إلى بلادكم . فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها (١)

وهذا كله يدل على ما كان يساوى العرب عند الروم ، وعلى ما كان لهم من قيمة ومنزلة عندهم

ولكن سرعان ماتغيرت الأحوال وانقلبت الحقائق وبطلت التجارب السابقة وتاه العقل ، إذ خرج هؤلاء الأعراب من صحرائهم يفتحون ويقهرون ويغلبون ويخضعون ، تدفق هذا السيل من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم عاصمة العرب الاسلامية ، لاحدى عشر سنة للهجرة النبوية واثنتين وثلاثين وست مائة لميلاد المسيح ، فغلب كل شىء اعترضه فى الطريق وطما على السهل والجبل ولم تكن جيوش فارس والروم ومصر وغيرها المعدودة بمئات الألوف الشاكية السلاح ، الشديدة البطش التى كانت الارض تزلزل بها زلزالا ، لم تكن هذه الجنود المجندة إلا حشائش فى هذا التيار الجارف ، فلم تعق سيره ولم تغير مجراه ، حتى فاض فى مروج الشام وفلسطين وسهول العراق وفارس وربوع مصر والمغرب الأقصى وأودية هملايا، سال هذا السيل القوى بالمدنيات العتيقة والحكومات المنظمة القوية ، والامم العريقة فى المجد والسلطان فأصبحت خبرا بعد عين (وجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق)

خرج العرب من جزيرتهم فاحتكوا بالفرس والروم ، وكان العرب يكرهون وجوههم (٢) ويرهبون سطوتهم فى ديارهم ، ولكن هانوا عليهم فى هذه المرة فغزوهم فى عقر دارهم ، ونزلوا بساحتهم ، فما لبثوا أن مزقوا جموعهم شر ممزق

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠

(٢) قال الطبرى : عندما اراد عمر فتح فارس تخوفوا من الفرس وعجبوا كيف يستطيعون ان يحاربوهم ؟ وكان وجه فارس من اكره الوجوه اليهم واثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم (تاريخ الطبرى ج ٤ : ٦١)

وثلوا عروشهم ، ووطأوا تيجان ملوكهم ، وفتحوا كنوزهم واقتسموا أموالهم وتراث ملوكهم وسبوا ذراريهم ، ومزقوا رداء فخرهم وعظمتهم فلم يرفع أبداً، وكسروا شوكتهم فلم تعد أبدا ، وهلك كسرى فلا كسرى بعده ، وهلك قيصر فلا قيصر بعده (واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها)

خرج هؤلاء العرب من جزيرتهم فى ثياب صفيقة مرقعة ، ونعال وضيعة مخصوفة يتقلدون سيوفا بالية الأجفان رثة المحامل ، على خيل بعضها عارية الظهور متقطعة الغرز ، قد بلغ بهم البعد عن المدنية إلى حد أنهم كانو يحسبون الكافور ملحا وربما استعمله بعضهم فى العجين (١) فما لبثوا ان ملكوا الدنيا ، وامتلكوا ناصية امم بعيدة الشأو فى المدنية . انقلب رعاء الشاة والأبل رعاة لأرقى طوائف البشر فى العلم والمدنية ، والنظام وصار هؤلاء اساتذتهم فى العلوم والآداب والأخلاق والتهذيب ، وحقت كلمة الله (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) .

هذه القوة القاهرة بعد ذلك الضعف المخزى وهذا النشاط الغريب بعد ذلك الخمود العجيب ، وهذا الانتباه السريع بعد ذلك السبات العميق ، لغزة من الغاز التاريخ وقد اتفقت كلمة المؤرخين على ان هذا الحادث أغرب ماوقع فى التاريخ الانسانى، وإليك بعض ماقال المؤرخون الاوربيون .

يقول المؤرخ جبون : «بقوة واحدة وبنجاح واحد زحف العرب على خلفاء اغسطس (فى الروم) واصطخر (فى فارس) واصبحت الدولتان المتنافستان فى ساعة واحدة فريسة لعدو لم يزل موضع الازدراء والاحتقار منهما ، فى عشر سنوات من أيام حكم عمر اخضع العرب لسلطانه ستا وثلاثين ألفا من المدن والقلاع ، خربو أربعة آلاف كنيسة ومعبد للكفار وأنشأوا أربعة عشر ألفاً من المساجد لعبادة المسلمين ، على رأس قرن من هجرة محمد ﷺ من مكة امتد

---

(١) قال ابن كثير : كان المسلمون يجيئون بعض تلك الدور، فيجدون البيت ملانا إلى اعلاه من اوانى الذهب والفضة ، ويجدون من الكافور شيئا كثيرا فيحسبونه ملحاً ، وربما استعمله بعضهم فى العجين فوجدوه مرا حتى تبينوا امره (البداية ج ٧ ص ٦٧)

سلطان خلفائه من الهند الى المحيط الاطلانطيكى ، وترفرف علم الاسلام على أقطار مختلفة نائية ، كفارس وسورية ومصر وافريقيا وأسبانيا (١)

ويقول ستودارد الأميركى فى كتابه حاضر العالم الاسلامى : « كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الأعجب الذى دون فى تاريخ الإنسان ، ظهر الاسلام فى أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان وبلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر فى نصف الأرض مزقا ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف ، وهادما أديانا قديمة كرت عليها الحقب والأجيال ، ومغيرا ما بنفوس الأمم والاقوام وبانيا عالما حديثا متراص الأركان - هو عالم الإسلام

كلما زدنا استقصاء باحثين فى سر تقدم الاسلام وتعاليه زادنا ذلك العجب العجاب بهرا ، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة . عرفنا أن سائر الاديان العظمى إنما نشأت ثم انشأت تسير فى سبيلها سيرا بطيئا ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ماأراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ فى تأييده والذب عنه ، حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه ، بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية « اسوكا » والمزدكيه قباكسرو ، كل منهم ملك جبار أيد دينه الذى انتحله بما استطاع من القوة والأيد ، إنما ليس الأمر كذلك فى الإسلام ، الإسلام الذى نشأ فى بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة فى التاريخ ، فلسرعان ماشرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته فى جهات الأرض مجتازا أفدح الخطوب واصعب العقبات ، دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ، ولا أزر مشدود وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الاسلام نصر مبينا عجيبا ، إذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة من « البرانس » حتى (جـــلايا) ومن صحارى أواسط آسية حتى صحارى أواسط أفريقيه (٢)

ويقول مؤرخ عصرى (ه . ا . ل فيشر) فى كتابه تاريخ أوربا : « لم يكن

( ) انحطاط رومة وسقوطها المجلد الخامس ص ٤٧٤ — ٤٧٥ طبع اكسفورد .

(٢) حاضر العالم الاسلامى ج ١ تعريب الاستاذ عجاج نويهض مقدمة فى نشوء الاسلام

هناك (فى جزيرة العرب قبل الاسلام) أثر لحكومة عربية أو جيش منتظم أو لطموح سياسى عام ، كان العرب شعراء خياليين ، محاربين ، وتجاراً ، لم يكونوا سياسيين إنهم لم يجدوا فى دينهم قوة تثبتهم أو توحدهم . انهم كانوا على نظام منحط من الشرك ، بعد مائة سنة حمل هؤلاء المتوحشون الخاملون لأنفسهم قوة عالمية عظيمة ، إنهم فتحوا سورية ومصر ، ودوخوا وقلبوا فارس ملكوا تركستان الغربية وجزءاً من بنجاب انهم انتزعوا أفريقية من البازنطيين والبربر وأسبانيا من القوط هددوا فرنسا فى الغرب والقسطنطينية فى الشرق مخرت أساطيلهم المصنوعة فى الاسكندرية ومواني سورية مياه البحر المتوسط اكتسحت الجزائر اليونانية وتحدت القوة البحرية للامبراطوريه البازنطينية لم يقاومهم إلا الفرس وبربر جبال الاطلس ، إنهم شقوا طريقهم بسهولة حتى صعب فى بداية القرن الثامن المسيحى أن يقف فى وجههم واقف ، ويعرقل سيرهم فى الفتح والاستيلاء ، لم يعد البحر المتوسط بحر الروم ، بل أصبح حوضا عثمانيا لاسيطرة فيه لغير الترك ووجدت الدول النصرانية من اقصى أوربا الى أقصاها منذرة مهددة بحضارة شرقية مبنية على دين شرقى »( )

ويقول مؤلف اشتراكى : « ان الانسان ليدهش إذا تأمل السرعة الغريبة التى تغلب بها طوائف صغيرة من الرحالين ، الذين خرجوا من صحراء العرب مشتعلين بحماسة دينية على أقوى دولتين فى الزمن القديم ، لم يمض خمسون سنة على بعثة محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى غرز أتباعه علم الفتح على حدود الهند فى فى جانب ، وعلى ساحل البحر الاطلانطيكى فى جانب آخر ، إن خلفاء دمشق الاولين حكموا على امبرطورية لم تكن لتقطع فى أقل من خمسة اشهر على اسرع جمل على نهاية القرن الاول للهجرة كان الخلفاء أقوى ملوك العالم .

كل نبى جاء بمعجزات آية لما يقول ، وبرهانا على صدقه ولكن محمداً ﷺ هو أعظم الانبياء واجلهم إذ كان انتشار الاسلام أكبر آيات الانبياء وأروعها إعجابا وخرقا للعادة ، إن أمبراطورية أغسطس الرومية بعدما وسعها بطلها

---

(1) H. A. L. Fisher, "A History of Europe" P.P. 137,138

تراجان نتيجة فتوح عظيمة فى سبعة قرون ولكنها لاتساوى المملكة العربية التى أسست فى أقل من قرن ان أمبراطورية الاسكندر لم تكن فى اتساعها إلا كسراً من كسور مملكة الخلفاء الواسعة ،ان الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة ولكنها غلبت وسقطت أمام سيف الله فى أقل من عشر سنوات (١)

والآن ننظر فى هذا الحادث الغريب نظرا علميا تحليليا ونبحث عن اسبابه الحقيقية.

الجنود والدول فى هذا العالم المادى تغلب الجنود والدول فى الغالب لوفرة عددها ، أو بزيادة عدتها وعتادها ولانها احسن فى الشكة والسلاح وفى التنظيمات العسكرية وفائقة فى النظام الحربى ؛ فنتناول جميع هذه العلل المادية التى يرجع اليها الفضل فى انتصار الجيوش والدول عامة ونبحث فيها علة علة :

أما العدد فمعلوم انه كانت النسبة بعيدة بين المقاتلين فى العدد فى جميع المواقف الحاسمة والمعارك الفاصلة فى كفاح الاسلام والنصرانية والمجوسية وكان الروم والفرس أضعاف عدد المسلمين فى أكثر الوقائع. هذه اليرموك كان الروم الذين نفروا لقتال المسلمين يبلغ عددهم الى مائة ألف وثمانين ألفا وفى رواية مائتى ألف وفى رواية أربعين ومائتى ألف وأقل ماروى عن عددهم عشرون ومائة ألف وأكثر ماذكر عن المسلمين أنهم كانوا أربعا وعشرين ألفا كذلك كانت النسبة بعيدة فى وقعة القادسية ،وهى اختها فى العراق والنتيجة معلومة ومايوم حليمة بسر.

وقد اعترف بقلة المسلمين ووفرة جنود الروم والفرس المؤرخون جميعا ولم يعللوا الفتح الاسلامى الغريب فى التاريخ بكثرة عدد مقاتلة المسلمين جاء فى الفصل الرابع للأستاذين « غوستاف لوبون » و « بلانوف »

« إن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار لم يكونوا عصائب لاتحصى ولا تعد تدفقت على الشرق المتمدن فقد أحصى مؤرخوا العرب الجيش الأول للمسلمين فى اليرموك بثلاثة آلاف ثم ارسل اليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل وأخيرا تمام عددهم ٢٤ ألفا وأما عدد الروم فقال العرب : إنه كان مائة ألف وقيل ١٢٠ الفا وقيل ٢٠٠ ألف مقاتل ولم يزده مؤرخو بيزنطية على ٤٠ ألفا

(1) M. N. Roy " Historical Role of Islam " P P 4,5,9,7

وعلى كل حال كان العدد الاكبر لاعداء العرب وهكذا فى حروب فارس» (١).

ومعلوم أن جزيرة العرب قليلة العمران بالنسبة إلى مساحتها واتساع رقعتها ومعظمها صحراء ، ورمال وعساء ، وارض قاحلة جرداء . اما البلاد التى زحف عليها المسلمون ورموا فيها بأنفسهم ، فهى من اخصب بلاد الله مستبحرة العمران مكتظة بالسكان وكانت خلتها تعسل حينا بعد حين وتقطع بعوثا اثر بعوث . وتتدفق سيول من الجيوش والمقاتلة وتأتيهم الميرة من كل مكان لاتكاد تنتهى ، وكان العرب الغرباء كنقطة مغمورة فى بحار من الاعداء نازحين عن بلادهم ، منقطعين عن مركزهم ولا يصلهم المدد الا بشق الأنفس وبعد شهور ، لا يجدون من الميرة الا ما يتغلبون عليه وينتزعون من ايدى اعدائهم انتزاعا ، فلو تطوعت جزيرة العرب كلها لقتال الروم والفرس ، ونفر جميع اهاليها للجهاد فى سبيل الله - على ان ذلك من المستحيل - لما وقعوا من العالم النصرانى والمجوسى - وهما أكثر من نصف الأرض المعمورة - بمكان ، فكيف والذين تطوعوا للجهاد ما كانوا نصف عشر عمران الجزيرة ؟ .

أما العدد والعتاد ، فكان العرب افقر فيها واقل منهم فى العدد فلم تكن هناك جنود مرتزقة ، ولا جيوش منظمة تعبئها الحكومة وتسلحها من عندها ، ثم تبعثها كاملة السلاح تامة الجهاز ، انما كان متطوعون ؛ يجهزون انفسهم ، وينفرون شوقا الى الجهاد فى سبيل الله ورجاء ثوابه ، ومنهم من لا يجد راحلة ويلتمس عند غيره فلا يجد ، فيقعد متلهفا على مايفوته من سعادة الجهاد فى سبيل الله ؛ وقد انزل الله فيهم (ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه ، تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا ان لا يجدوا ماينفقون - : براءة) .

وكان المسلمون تزدريهم اعين الروم والفرس لما خرجوا لقتالهم ، وكانوا يسخرون من سلاحهم ونبالهم وثيابهم ويضحكون . قال ابو وائل احد الذين شهدوا القادسية - كان الفرس يقولون للمسلمين : لا يد لكم ولا قوة ، ولا سلاح ، ماجاء بكم ارجعوا قلنا : مانحن براجعين . فكانوا يضحكون من قبلنا ، ويقولون : دوك دوك ،

---

(١) حاضر العالم الاسلامى حواشى الأمير شكيب ارسلان ج ١ ص ٢٩

وشبهونا بالمغازل (١)

قال ابن كثير : وكان سعد قد بعث طائفة من أصحابه الى كسرى يدعونه الى الله قبل الوقعة ، فاستأذنوا على كسرى فأذن لهم ، وخرج أهل البلد ينظرون الى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم، وسياطهم بأيديهم والنعال فى أرجلهم، وخيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعددها(٢) :

ويقول « ماكس مايرهوف » فى تأليفة (العالم الاسلامى) .

يكاد يكون مستحيلا أن نفهم كيف أن اعرابا منقسمين الى عشائر ، ليست عندهم العدد والأعتدة اللازمة يهزمون فى مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مرارا فى الأعداد والعتاد وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة (٣) » .

ومما قيل فى تعليل غلبة المسلمين ان العرب كانوا فائقين فى نظامهم الحربى على الروم والفرس فى ذلك العصر . وكانت كتائبهم أحسن تنظيما وتدريبا . وأفضل نظاما عسكريا وأكثر انقيادا لأمرائها وقوادها من العساكر الرومية والفارسية وأن الفضل فى انتصار العرب مع قلتهم وانكسار الروم والفرس وغم كثرتهم يرجع الى مراس العرب للقتال وضراوتهم بالحروب وولوعهم بالغزو والنهب ونشأتهم الجاهليه الأولى . النشأة الحربية المحضة .

هذا الكلام يشبه أن يكون وجيها وأكثر صوابا من التعليلات السابقه . ولكنك اذا انتقدته كباحث ومؤرخ وجدته مغالطة كبيرة يغالط بها الكتاب الاوروبيون ويتعللون بها . وقد يفهمون . وقد لا يفهمون

قد ثبت فى تواريخ القرون الوسطى أن الروم (وكذا الفرس) كانوا راقين فى نظامهم الحربى فى ذلك العصر وقد بلغت الدولة البزنطية فى بداية القرن السابع

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤

(٢) ايضا ج ٧ ص ٤٢

(٣) حاضر العالم الاسلامى حواشى الأمير شكيب ارسلان ، ج ١ ص ٢٩

لمسيحى زهوها وأوج فتوحها الحربية . ففى ذلك العهد دحر الروم الفرس وردوهم على أعقابهم وجاسوا خلال الديار وعبر هرقل جبال الكرد ونهر دجله غازيا منتصرا وبعد حرب دامية فى ساباط ومعركة فاصلة فى نينوا دخل دستجرد وتقدم إلى المدائن وغرز علم الفتح الرومى فى قلب فارس وذلك كله فى سنة ٦٢٥ م يعنى قبل زحف المسلمين على الشام باثنى عشرة سنة فقط ،

وقد أفادت هذه الحروب الطاحنة التى بدأت من سنة ٦٠٣ الفريقين (الروم وفارس) من جهة الحرب والتدريب كثيرا ، وقد استفاد الفريقان أساليب جديدة للقتال وخدعة وحسن بلاء فى الحرب وتعلم كل فريق منهما ومن الآخر كما كان الشأن فى الحروب الصليبية فى القرون الوسطى .

وقد اعترف جبون مؤرخ رومة الكبير بفضل الروم على العرب فى الحروب ونظامها فقد قال فى كتابه (المجلد الخامس ص ٤٧٨) .

« أنا ألاحظ هنا وسأكرره مرارا أن هجوم العرب وقتالهم لم يكن مثل الرومان واليونان الذين كانت لهم رجالة قوية مستحكمة ، كانت القوة العسكريه للعرب مركبة من فرسان ورماة وكانت الحرب التى قد تقاطعها مبارزات شخصية ومناوشات من القتال قد تستمر وتطول بغير حادثة فاصلة إلى عدة أيام » .

أما ماقيل من مراس العرب للقتال وتدربهم عليها بفضل حروبهم القبلية التى كادت تكون مستمرة وتمكنهم من الانتصار على الروم والفرس فلم تكن هذه المناوشات والغزوات الطائفية بحيث يتمكن بها العرب من قهر الامبراطوريتين الكبيرتين الرومية والفارسية وقد خضع العرب مع هذا كله للحبشة ولفارس فى جنوب العرب وانسحبوا أمام جيوش أبرهة فى زحفه على مكة وأن الله هو الذى تولى حراسة بيته وكفى قريشا القتال وجعل اصحاب الفيل كعصف مأكول ولماذا لم يجسر العرب على الخروج من جزيرتهم وغزو البلاد وفتحها فى هذه القرون الطويله التى قضوها فى شبه جزيرتهم فى خمود وخمول تام؟ لماذا لم يهاجموا الروم والفرس كما فعلوا بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بغير تراخ ؟ ولماذا لبثوا الاحقاب والأجيال الطوال « معكومين على رأس حجر بين الاسدين فارس والروم »

كما يقول قتادة أحد التابعين الكبار (١)

أما ماقيل عن النظام فلا نذكر حسن نظام العرب فى حروبهم وغزواتهم وروح التعاون والتفادى السارى فى جنودهم والطاعة والانقياد لامراء الجيوش وقوادها والتفانى والاستماتة فى سبيل الله ولكن يعلم الخبير أن النظام ليس شيئا صناعيا ميكانيكيا يحصل بمجرد تنظيمات عسكرية وفنون حربيه وقواعد رياضية ولو صففت الحجارة تصفيفا بديعا أو أقيمت العمد والسوارى على نظام فنى رياضى كامل لم تنفع شيئا ، وقد قرأت فى التاريخ أن الروم والفرس قد كانوا فى بعض المواقف الجليلة يسلسلون أنفسهم ويحفرون لهم فى الارض لئلا ينحدروا أو ينسحبوا من ميدان القتال ثم لا يغنى عنهم هذا شيئا ، فليس الشأن كله فى النظام فى الحرب إنما الشأن الكبير التأثير البليغ للروح والمبدأ والغاية التى يقاتل لاجلها الجنود وتمكنها من النفوس وهى منبع القوة الخارقة للعادة ومبعث الشجاعة التى تبهر العقول وسبب الفتوح العظيمة التى يندهش لها المؤرخون والفلاسفة .

وعن هذا المنبع نبحث فى نفوس العرب الاولين الذين خرجوا لفتح العالم وفتحوا نصف الارض فى نصف القرن .

منبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذى لا يوجد له مثيل فى التاريخ إن العرب أصبحوا بفضل تعليم محمد ﷺ أصحاب دين ورسالة فبعثوا بعثا جديدا وخلقوا من جديد وانقلبوا فى داخل أنفسهم فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت وانقلبوا غير ما كانوا رأوا إلى العالم حولهم - وطالما رأوه فى جاهليتهم بدهشة واستغراب - فاذا الفساد ضارب أطنابه ، واذا الظلم ماد رواقه واذا الظلام مخيم على العالم كله وكل شىء فى غير محله فقتوه وأبغضوه ، ورأوا الى الامم وطوائف البشر حول جزيرتهم - وطالما رأوها بتعظيم وإجلال وغبطة واكبار - فاذا أنعام ودواب فى صورة البشر (يأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم) واذا صور ودمى قد كسيت ملابس الانسان فاستهانوا بهم وبما هم فيه من ترف ونعيم وزخارف وزينة وقرأوا قول الله تعالى (زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه) (ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ٢٢

الله ليعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون)

وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور ومن عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام واورثهم ارضهم وديارهم وأموالهم وارضا لم يطؤها واستخلفهم فى الارض ومكنهم فيها ، وقرأوا قول الله تعالى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون) وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى بهم وليبدلنهم من خوفهم امنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) وتعلقوا بقول نبيهم ﷺ .

(ان الله زوى لى الارض فرأيت مشارقها ومغاربها . وان امتى سيبلغ ملكها ماروى لى منها واعطيت الكنزين الاحمر والابيض (١)

وقوله (اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله (٢)

وعرفوا أن الله قد ضمن لهم بالنصر ووعدهم بالفتح فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله واستهانوا بالقلة والكثرة واستخفوا بالمخاوف والاخطار وذكروا قول الله تعالى (ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقوله (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

وقد فطن بهذه الحقيقة بعض معاصرى المسلمين واعدائهم واهل النظر والتميز فى ذلك العصر من الروم والفرس . فمن ذلك ما روى ابن كثير ان هرقل لما انتهى اليه خبر زحف المسلمين قال لأهل الشام ويحكم ان هؤلاء اهل دين جديد وانهم لاقبل لاحد منهم فأطيعونى وصالحوهم بما يصالحونكم على نصف خراج الشام ويبقى لكم جبال الروم وان انتم ابيتم ذلك اخـــذوا منكم الشام وضيقوا عليكم

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه الترمذى .

جبال الروم (١)

أما عقيدة المسلمين أنهم مبعوثون إلى الأمم موكلون بإخراج الناس الى عبادة الله وحده وأن الله متولى نصرهم ضامن بظفرهم فستلحه وتسلمه فى كل ما كان يصدر من المسلمين من كلام وفعال ومن ثقتهم وسكينة قلوبهم .

ومن ذلك ماروى أن الامراء لما كتبوا إلى أبى بكر وعمر فى اليرموك يعلمونهما بما وقع من الامر العظيم وما يقابلون خطر داهم وعدد لاقبل لهم به . كتب اليهم أن اجتمعوا وكونوا جندا واحدا وألقوا جنود المشركين فأنتم أنصار الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم عن قله ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها (٢) :

ولما استشار عمر فى أصحابه فى مسيره الى العراق بوقعة نهاوند قال له على ابن ابى طالب « يا أمير المؤمنين إن هذا الامر لم يكن نصره ولاخذلانه بكثرة ولا قلة هو دينه الذى أظهر وجنده الذى أعزه وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ فنحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جنده (٣)

ولذلك كانوا يخاطرون بأنفسهم ويأتون بأعاجيب وأعمال خارقة للعادة ثقة بنصر الله واعتمادا على موعوده. حتى أنهم خاضوا بخيولهم فى دجلة وكانوا يتحدثون مطمئنين كأنهم سائرين على البر . وكان منظرا غريبا ، وجعل الفرس يقولون ديوان آمدند يعنون الجن والعفاريت ويقولون ديوانه ديوانه يعنون المجانين وكان الذى يساير سعد بن أبى وقاص فى الماء سلمان الفارسى فجعل سعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه وليظهرن الله دينه وليهزمن الله عدوه . ان لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات فقال له سلمان : ان الاسلام جديد. ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر . أما والذى نفس سليمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا أفواجا فخرجوا منه كما قال سلمان : لم يغرق منهم أحد ولم يفقدوا شيئا (٤)

بعثت هذه العقيدة والنفيسة طمأنينة فى انفسهم وسكينة فى قلوبهم وشجاعة

---

(١) و (٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٧

(٤) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٦ .

خارقة للعادة واستهانة بالعدد والعدد وعدم عبادة للمادة وعدم اتخاذ الأسباب أربابا وعرفوا أنهم يقاتلون بقوة الدين ويظفرون ويغلبون ببركة الاسلام فكانوا شديدى الاحتفاظ كثيرى الاعتداد بها ، بتمثل ذلك فيما قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، روى يونس عن ابن اسحاق . أن المسلمين بلغهم أن هرقل نزل بمآب فى مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعر به (والمسلمون لايزيدون على ثلاثة آلاف) فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا على معان ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا نكتب الى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له قال: فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال. ياقوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ومانقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ماقاتلهم إلا بهذا الدين الذى اكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور واما شهادة قال فقال الناس قد والله صدق ابن رواحه فمضى الناس (١)

كانوا واثقين بما وعدهم به رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الفتوح العظيمة فإذا رأوا من ذلك شيئا قالوا (هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما) .

جاء رجل الى أبى عبيدة يوم اليرموك فقال . إنى قد تهيأت لأمرى فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال . نعم تقرئه عنى السلام وتقول يارسول الله . إنا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا (٢)

وقد بلغوا فى قلة الاهتمام بالعدد والاستخفاف بشأن العدو وكثرته حتى كأنهم من حديد والعدو من طين وخزف أو كأنهم مناجل والعلوج (٣) حقول ومزارع قد أينعت وحان حصادها .

قال المؤرخون لما أقبل خالد من العراق قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد ما أكثر الروم وأقل المسلمين ؟! فقال خالد . ويلك أتخوفنى

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٣

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٢

(٣) العلج الرجل الضخم القوى من كفار العجم وقد يطلق على الكافر عموما

بالروم ؟ إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لابعدد الرجال والله لوددت أن الأشقر برأ من توجعه وأنهم أضعفوا فى العدد - وكان فـــرسة قد حفا واشتكى فى مجيئه من العراق (١)

وقد ارتفع هؤلاء وعلت هممهم وكبرت نفوسهم وعظم الدين والحقيقة والأخلاق فى نظرهم حتى صغرت الدنيا وزخارفها فى عيونهم وهان أهلها عليهم فكانوا يرون الى أبهة الملوك وفخفخة السلاطين ومافيه أغنياء هاتين المدنيتين ومترفوها من الأثاث والرياش وزخارف الدنيا كأنهم يرون إلى لعب الصبيان وكأنهم يرون الدمى والبنات المصنوعة من ورق أو قماش فى مواكبها وزينتها لايهولهم شيء ولا يعظم فى عينهم شيء .

أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسيه وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابى الحرير وأظهر اليواقيت واللالىء الثمينة والزينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الامتعة الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب ودخل ربعى بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة ولم ينزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسايد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضة على رأسه فقالوا له ضع سلاحك فقال : إنى لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتمونى فان تركتمونى هكذا وإلا رجعت فقال رستم ائذنوا له . فأقبل يتوكا على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها فقالوا له ماجاء بكم فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضى الى موعود الله . قالوا وماموعود الله ؟ قال . الجنه لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن يبقى فقال رستم قد سمعت مقالتكم فهل لكم ان تؤخروا هذا الامر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال نعم كم أحب إليكم يوما أو يومين ؟ قال لابل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا فقال . ماسن لنا رسول الله صلى الله

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٩

عليه وسلم أن تؤخر الاعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث فانظر فى امرك وامرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل فقال أسيدهم انت ؟ قال لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا معاذ الله أن تميل الى شىء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويلكم لاتنظروا الى الثياب وانظروا إلى الرأى والكلام والسيرة إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل ويصونون الاحساب (١)

دخل المغيرة بن شعبة على رستم وقعد معه على السرير فتخروا وصاحوا فقال إن هذا لم يزدنى رفعة ولم ينقص صاحبكم فقال رستم صدق (٢)

وكان من اكبر أنصار المسلمين أخلاقهم العالية وسيرتهم الملكية فكانوا يمتازون بها ويعرفون بها أينما رحلوا ونزلوا وكانت هذه الاخلاق طليعة جيوشهم تسخر لهم القلوب والنفوس وتشرح لهم الصدور قبل أن تعمل سيوفهم ورماحهم ونبالهم والذين كانوا يشهدونها ويجربونها كانوا يشهدون أن هؤلاء سيغلبون ويملكون الدنيا وأن الفرق بينهم وبين أقرانهم كالفرق بين البهائم والملائكة .

روى أحمد بن مروان المالكى فى المجالسة بسنده عن أبى إسحاق قال كان أصحاب رسول الله ﷺ لايثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء فقال هرقل وهو على انطاكية لما قدمت منهزمة الروم ويلكم اخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرا مثلكم ؟ قالوا بلى . قال فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا بل نحن أكثر منهم أضعافا فى كل موطن قال فما بالكم تنهزمون ؟ فقال شيخ من عظمائهم من أجل انهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزنى ونركب الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضى الله ونفسد فى الارض فقال . أنت صدقتنى

وسأل هرقل هذا رجلا كان قد أسر مع المسلمين فقال اخبرنى عن هؤلاء

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٠

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٠

القوم فقال أخبرك كأنك تنظر اليهم هم فرسان بالنهار رهبان بالليل لا يأكلون فى ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه فقال . لئن كنت صدقتنى ليملكن موضع قدمى هاتين (١)

ووصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم فقال . جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولا عتاقا اما الليل فرهبان وأما النهار فرسان يرشون النبل ويرونها ويثقفون القنا لو حدثت جليسك حديثا مافهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر قال فالتفت الى أصحابه وقال اتاكم منهم مالاطاقة لكم به(٢)

حببتهم هذه الاخلاق الى أعدائهم الذين كانوا يقاتلونهم حتى ان كان هؤلاء ليؤثرونهم على بنى جلدتهم وأبناء ملتهم ويتمنون لهم الظفر ويدفعون عنهم العدو ويتطوعون لمصالحهم .

قال البلاذرى فى فتوح البلدان حدثنى أبو حفص الدمشقى قال . حدثنا سعيد ابن عبد العزيز قال بلغنى أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم اليهم بوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على امركم فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود فقالوا والتوراة لايدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الابوات وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود وقالوا : ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه وإلا فانا مابقى على امرنا للمسلمين عدد فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين (٢) فنعبوا وأدوا الخراج (٣)

. . .

هذا ولما طال على المسلمين الأمد وقست قلوبهم ونسوا وتناسوا مالاجله بعثهم الله على كثرة من الناس وتوافر من امم الارض وهو قوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص ٥٣

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦

(٣) لما دخل القوم استقبلوا الولاة عند قدومهم بضرب الدف والغناء واصناف الملهى

( ) فتوح البلدان ص ١٧٠ طبع اوربا

ونسوا مالأجله خرجوا من جزيرتهم يخرجون الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحدة وصاروا يحكمون الناس حكم الناس على الناس وصاروا يعيشون حياة لاهية حرة حياة من لا يعرف نبيا ولا يؤمن برسالة ووحي ولا يرجو حساباً ولا يخشى معاداً وأشبهوا الأمم الجاهلية التي خرجوا يقاتلونها بالامس عادوا فقلدوها في مدنيتها واجتماعها وسياستها وأخلاقها ومناهج حياتها وفي كثير مما مقتها الله لأجله وخذلها وأصبحوا لا هم لهم ولا شغل إلا الاكل والشرب والتناسل وأصبحوا كرعايا الناس ليس لهم فرقان ولا نور يمشون به بين الناس ، وأشبهت ملوكهم وأمراؤهم جبابرتها وفراعنتها وأغنياؤهم مترفيها وأكابر مجرميها وكاد يسبق فجارهم لفجارها، تحاسد وبغضاء ومنافسة في السلطان وتكالب على حطام الدنيا وإخلاد الى الترف والنعيم وإعراض عن الآخرة ، وسفك للدماء وهتك الاعراض وهضم للحقوق وغدر بالعهود والذمم وتعد عن حدود الله واعانة للظالم وجنف في الحكومات والمظالم وتبذير لأموال الله وعموم الفواحش والمنكرات وابتداع للجرائم وابداع في الجناية مما يحتاج بسطه إلى مجلدات ، فهانوا اذا على الله مع أسمائهم الاسلامية ورغم وجود الصالحين فيهم وظهور بعض الشعائر الدينية والواجبات الشرعيه في بلادهم وهانوا على الناس رغم مملكتهم الواسعه وجيوشهم الكثيفة ، وخزائنهم العامرة ورغم تقدمهم في الحضارة ومظاهرها الكثيرة ، فقل إكرام الناس لهم وهيبتهم إياهم وتجاسروا عليهم ؛ قال رتبيل ملك رخج وسجستان لرسل يزيد بن عبد الملك وقد جاؤا اليه يطالبونه بالخراج « ما فعل قوم كانوا يأتون خماص البطون سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص » ؟ قالوا انقرضوا قال: « أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ، وان كنتم أحسن منهم وجوها » ثم لم يعط أحداً من عمال بني أميه ولا عمال أبي مسلم على سجستان من تلك الاتاوة شيئا (١)

فإذا كان هذا في القرن الثاني فما ظنك بقرون بعده ؟!

حتى اذا بلغ السيل الزبى وتضاعف كل ماذكرنا وأفسد المسلمون في الأرض بعد اصلاحها وآسفوا الله ، بعث عليهم عباداً له أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار. سلط عليهم المغول والتتار أشقى الامم وأخلها وأجهلها وأوحشها . فوضعوا فيهم

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٠١ طبع بريل

السيف وأجروا من دمائهم سيولا وأنهارا وأقاموا من رءوسهم صروحا وتلالا وفعلوا بهم الأفاعيل وأجلسوهم الخوف فتمكن من قلوبهم الوهل والجبن حتى أصبحوا لا يصدقون بهزيمة التتر قال ابن الاثير: سمع عن بعض أكابرهم أنه قال من حدثك أن التتر انهزموا فلا تصدقه . قال ووقع رعبهم فى قلوب الناس حتى كان أحدهم اذ لقى جماعة يقتلهم واحدا واحدا وهم دهشون ودخلت امرأة من التتر دارا وقتلت جماعه من اهلها وهم يظنونها رجلا ودخل واحد منهم دربا فيه مائه رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يمد أحد يده اليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا نعوذ بالله من الخذلان . وحكى ان أحدهم اخذ رجلا ولم يجد ما يقتله به فقال له ضع راسك على هذا الحجر ولاتبرح فوضع رأسه وبقى الى ان اتى التترى بسيف وقتله. قال ابن الاثير وامثال ذلك كثيرة :

واليك ما قال ابن الاثير قبل ان يسرد وقائع هذه النازلة .

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا اقدم إليه رجلا وأوخر أخرى فمن الذى يسهل عليه ان يكتب نعى الاسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت امى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . . . هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثه العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الايام والليالى عن مثلها . عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن اهل العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . . . . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى ان ينقرض العالم وتفنى الدنيا الخ »

ولكن مثل هذه الحادثة لم تستطع ان تنبه المسلمين ولم يفيقوا من سكرتهم ولم يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله مابهم وحق عليهم قول ربهم (لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون) وقوله (فلولا اذ جائهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقوله (ولقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) وما زالوا متهمكين فيما هم فيه من غفلة ولهو وظلم حتى تقول ابن الاثير :

، فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصرا من عنده فما نرى فى ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو وقال الله تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

ومما يجب ان يلاحظ القارىء ويعتبر به المعتبر ان المسلمين فى هذه الظلماء التى غشيتهم والفتنه التى عمتهم كلما افاقوا سكرتهم واصلحوا شأنهم وأزاحوا العـــلل وصمدوا فى وجه العدو واستنزلوا النصر هزموا التتر الذين لم يكونوا يعرفون الهزيمة ولا يصدق الناس بانهزامهم فقد هزمهم جلال الدين خوارزمشاه ثلاث مرات وهزمهم الظاهر بيبرس غير ما مرة وهزمهم الملك الناصر صاحب مصر بمرج الصفر . وقال السيوطى عن وقعة عين جالوت : (فهزم التتار شر هزيمة وانتصر المسلمون ولله الحمد وقتل من التتار مقتلة عظيمة وولوا الأدبار وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم (١) .

ولم يزدد المسلمون الا ضعفا ولم تزدد اخلاقهم على مر الايام الا انحطاطاً وتدهورا ولا احوالهم وشئونهم الا فسادا حتى اصبحوا أمة جوفاء لا روح فيها ولا دم . وكانوا كصرح عظيم من خشب منخور قائم لا يزال يورى الناس ويهول من بعيد ، او كدوحة قد تأكلت جذورها ونخر جذعها العظيم ولم تنقلع بعد . واصبحت بلادهم مالا سائبا لا مانع له واصبحت دولهم فريسة لكل مفترس وطعمة لكل آكل وحق قول النبى ﷺ :

(يوشك الامم ان تداعى عليكم كما تداعى الآكلة الى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قال قائل يارسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهة الموت (١))

واستمر المسلمون بهذا الحال وزيادة حتى اغار عليهم فى القرن الثامن عشر

---

(١) تاريخ الخلفاء رواه ابو داؤد عن ثوبان رضى الله عنه

المسيحى الأمم الأوربية النصرانية الجاهليه. المتحضرة الوحشيه الكاسية العارية (١) فسلموها مفاتيح ملكهم واعتزلوا فى مصلحتها عن قيادة العالم

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخلقى منزلة أن وجد فيهم أفراد خانوا أمتهم وشروا بلادهم بثمن بخس دراهم معدودة وتطوعوا فى جنود العدو يفتحون بلادهم للاجنبي على حسابهم

ولكن هذا الهجوم الغربى كان أشد تأثيرا وأعمق اثرا وأبعد مدى من الهجوم الشرقى (المغولى والتتارى) فكاد يخمد كل جمرة فى قلوبهم لم تخمدها العواصف طيلة هذه القرون وبقيت كامنة فى الرماد تخبو مرة وتلتهب اخرى

فتش عقلائهم عن منابع القوة الكامنة فى نفوس المسلمين وقلوبهم فوجدوا ان اكبر منبع القوة والحياة هو (الايمان) وشهدوا مافعل الايمان قديما وما اظهر من معجزات وخوارق وما هو خليق بأن يفعل فعادوه وسلطوا على المسلمين عدوين هما افتك بهم وأضر لهم من المغول والتتار ومن الوباء الفاتك . الاول: هو الشك وضعف اليقين الذى لاشيء ادعى للضعف والجبن منه والثانى : ما نعبر عنه بالذل النفسى وهو ان صار المسلمون يشعرون بالذل والهوان فى داخل انفسهم وفى اعماق قلوبهم ويزدرون بكل ما يتصل بهم من دين وتهذيب واخلاق ويستحيون من انفسهم ويؤمنون بفضل الأوربيين فى كل شيء ويعتقدون فيهم كل خير ولا يكادون يعترفون بنقص وعيهم فى ناحية من نواحى الحياة ولا يصدقون بانهزامهم وفشلهم فى ساعة من ساعات الدهر وإذا تمكن هذا الذل من نفوس امة فقد ماتت وان كنت تراها تغدو وتروح وتأكل وتعيش .

وابتلى المسلمون فى هذه المرة ـ بتأثير الحضارة الغربية والفلسفة الغربية بعبادة المادة وحب الدنيا والجرى وراء النفع العاجل وتقديم المصالح الشخصية والمنافع المادية على المبادىء والاخلاق شأن الامم الاوربيه الجاهلية فكانت هذه الاخلاق وهذه النفسية والتربية مانعا من الجهاد فى سبيل الله واعلاء كلمته ومن تحمل المشاق وتجرع المرائر ومكابدة الأهوال والخسائر فى سبيل المبدأ الصحيح والعقيدة السامية

( ) المطلع على تاريخ حضارة هذه الامم وطبيعتها يصدق هذه الصفات المتناقضة

كان نتيجة هذا كله أن ظهر جيل فى المسلمين ، متنور الذهن : ولكن مظلم الروح أجوف القلب ، ضعيف اليقين ، قليل الدين قليل الصبر والجد ، ضعيف الارادة والخلق ، يبيع دينه بدنياه ، وآجله بعاجله ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية وبجاه وعزة وهمية ، ضعيف الثقة بنفسه وأمته ، عظيم الاتكال ، كثير الاستناد إلى غيره

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم)

هؤلاء هم الذين نشروا فى المسلمين الجبن والوهن ، وصرفوا المسلمين عن الاتكال على الله ، ثم الاعتماد على أنفسهم إلى الاعتماد على غيرهم والتكفف لديهم والالتجاء فى مواقع الخطر اليهم ، وأطفئوا فى قلوبهم شعلة الجهاد فى سبيل الله ، والحمية للدين ، وابدلوها بالوطنية العليلة ، والجنسية الناعسة ، وأبدلوا جنونها الذى بعث الحكمة من مرقدها ، وأطلق العقل من إسارة ، والذى تمكن بما لم يتمكن منه العقل والعلم فى آلاف من السنين ، ابدلوا هذا الجنون الحكيم بعقل ناقص عليل لا يعرف إلا الموانع والعراقيل .

وقد ظهر هذا التحول العظيم فى العقيدة والنفسيه والإفلاس فى الروح والايمان فى شر مظاهره فى حرب فلسطين ، فكان فضيحة للعالم العربى فى القرن الرابع عشر الهجرى ، كما كان انكسار المسلمين وفشلهم الذريع امام الزحف التتارى فضيحة للعالم الاسلامى فى القرن الثامن فقد اجتمعت سبع دول عربية لتحارب الصهيونية وتدافع عن وطن عربى اسلامى مقدس ، عن القبلة الأولى وعن المسجد الثالث الذى تشد اليه الرحال ، وعن جزيرة العرب والاقطار العربية التى أصبحت مهددة بالخطر الصهيونى ، فكانت حرب فلسطين دفاعا عن حياة وشرف وعن دين وعقيدة ، وكان العالم العربى بأسرة ازاء دويلة صغيرة لم تستقر بعد ، واتجهت الانظار الى مسرح فلسطين ، وانتظر الناس معركة مثل معركة اليرموك او وقعة مثل وقعة حطين . ولماذا لا ينتظرونها والأمة هى الأمة ، والعقيدة هى العقيدة مع زيادة فائقة فى العدد والعدد ، فلماذا لا ينتصر العرب وهم عالم ؟ ولماذا لا يقضون على عدوهم وهو حفنة من المشردين ؟

ولكنهم نسوا ما فعلت الايام وما فعلت التربية ، وما فعلت الدول والزعامة السياسية ، وما فعلت المادية بالامة العربية فى هـــذا العصر ، لقد تقدم العرب

الى معركة اليرموك حقا ، ولكن بغير الايمان الذى تقدم به اسلافهم الى هذه المعركة فى العصر الاول.

لقد تقدموا إلى وقعة كانت وقعة حاسمة كحطين ـ لو ظفر العرب ـ ولكنهم تقدموا بغير الروح التى تقدم بها صلاح الدين وجنده المؤمن المجاهد : تقدموا بقلوب خاوية تكره الموت ، وتحب الحياة ، واهواء متشتتة ، وكلمة متفرقة ، يريدون ان يربحوا النصر ولا يخسروا شيئا وان يحافظوا على شرفهم ولا يخاطروا بشىء ؛ كل يعتقد ان غيره هو المسئول عن الحرب وعن الغلبه والهزيمة ؛ ثم هم يقاتلون وحبلهم فى يد غيرهم ، اذا ارخى قليلا تقدموا ، واذا جره تأخروا ، واذا قال حاربوا حاربوا واذا قيل اصطلحوا اصطلحوا وماهكذا يكتسب الظفر ويقهر العدو

اوردها سعد وسعد مشتمل ماهكذا تورد ياسعد الإبل

وبقى العالم متطلعا الى ماقرأه فى تاريخ الجهاد الاسلامى من روائع الايمان وخوارق الشجاعة والصبر ، والاستهانة بالحياة والبسالة والبطولة والاستقبال للموت ، والتمنى للشهادة ، وحسن النظام ، وروح الاطاعة والايثار ، فلم ير من ذلك شيئا ، الا لمعات وإشراقات للايمان كانت تظهر من بعض المتطوعين فى حرب فلسطين والاخوان المجاهدين ، تجندوا وتطوعوا للحرب بدافع الايمان ، والدفاع عن الاسلام ؛ وحملتهم الحمية الدينية على المغامرة ، ودفعتهم الى ميدان الحرب ، فشرفوا الدين وارعبوا القلوب ، واعادوا التاريخ القديم ، وبرهنوا على ان الايمان لايزال المنبع الفياض للقوة والنظام ، وان عنده من القوة والنفوذ والتنظيم وروح المقاومة والجهاد مالیس عند الدول الكبيرة المنظمة .

لقد ثبت مما ذكرناه فى هذا الكتاب ، وما سردناه من الامثلة والاخبار ، وشهادات التاريخ ومشاهدات هذا العصر ـ وما حرب فلسطين منا ببعيد ان المد والجزر فى تاريخ الاسلام واحوال المسلمين تابعان للمد والجزر فى الايمان وقوة معنوياتهم التى تنبثق من الدين وان منبع قوة هذه الامة فى باطنها ، وهو القلب والروح ، فإذا عمر القلب بالايمان بالله ورسوله واليوم الاخر ، وتزكت الروح بتعاليم الدين والاخلاق الاسلامية . وجاش الصدر بالحمية الدينية جيشان المرجل واخذ المسلمون عدتهم من القوة المادية واعدّوا للعدو ما استطاعوا ، وادركوا

ماعليه العالم من جور وظلم ومن جهالة وسفاهة وضلال فى الدين والدنيا وعلموا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الاسلام والعالم قد عاد جاهليا كما بدا « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس » فأشفقوا عليه ورأوا كأن العالم فى حريق ولا ماء إلا عندهم فسعوا به يطفئون النار التى عمت الدنيا ونسوا فى سبيل ذلك لذاتهم وتكدر عيشهم ، وطار نومهم ، وجن جنونهم ، فعند ذلك يتحولون قوة خارقة للعادة لا يقلها العالم ، ولو سعى بأسرة وجميع شعوبه وجنوده ودوله ويصيرون قضاء الله الغالب وقدره المحتوم وكلمته العليا « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وأن جندنا لهم الغالبون » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » .